دراسة ألقيت في ملتقى النص عن حمزة شحاتة

فيلسوف الحرية

(قراءة في كتاب الرجولة عماد الخلق الفاضل)

د. محمد ربيع الغامدي

فيلسوف الحرية

(قراءة في كتاب الرجولة عماد الخلق الفاضل)

(1)

يطالع القارئ في مستهل مقدمة محاضرة حمزة شحاته الشهيرة (الرجولة عماد الخلق الفاضل) بل في أول جملة من المقدمة حديثًا عن الضرورة: "عندما يكون الإقدام على المخاطرة ضرورة لا يعد شجاعة". (ص 21). ثم يستهل الفقرتين التاليتين باللفظ نفسه، والثالثة بلفظ "الحرية".

المناسبة الظاهرة لهذا الكلام تتعلق بالكيفية التي استجاب بها المحاضر لمن طلب منه أن يلقي محاضرته. ولذا قد يظن القارئ أن الدلالة هنا لا تتعدى وصف حال المحاضر والمحاضرة، وتسويغ تغيير عنوانها المقترح عليه آنذاك. أي أنه حديث لا يتجاوز التمهيد لموضوعه، وإعلام السامعين بأنه مارس حريته في زحزحة العنوان؛ حرية أن يطلق لفكره عنانه، فهذا عنده (على حد قوله) أخلق بأن يجعله أكثر شعورًا بحياته وفهمًا لها، ورجا أن يحمد له سامعوه نتائج هذه الحرية. (ص 22).

قد يتوهم القارئ أن لفظتي (الحرية والضرورة) الواردتين في المقدمة ينتهي أثرهما عند هذا الحد. لكن الأمر لا يلبث أن يتكشف عن أن مفهوم "الحرية" في مقابل "الضرورة" عنده هو الأساس الذي تدور عليه محاضرته في العمق، وذلك إلى الحد الذي يصح ــ فيما أرى ــ الزعم بأننا يمكن أن نمارس على عنوانه هو حريتنا نحن فنغيره بحيث يصبح العنوان متضمنًا أثر الحرية في بلورة الفضائل.

(2)

بدا أن حمزة شحاته وهو يسأل السؤال الوجودي الصعب: (من أنا؟) يرى الضرورة ــ في مقابل الحرية وإرادة الاختيار ــ هي المعضلة في الإجابة عن هذا السؤال بقدر ما هي أيضًا حجر الأساس في تلك الإجابة: ((يبدو لي أنني لم أستقبل حياتي منذ وعيت حتى هذه الساعة. كنت أعيش متأثرًا بجملة الظروف والدوافع والمقاومات. أسير وأتقهقر وأقف، وأحيانًا أعدو بجنون. وحيث يتاح لي أن أتأمل ذاتي أرى أني أداة تُملى عليها مقدّرات حركتها وسكونها. لم أشعر قط بتحرير إرادتي)). (رفات عقل ص 12). ثم يضيف في تفسير قلق حياته: ((لقد كانت حياتي قلقة وما تزال؛ لأنني لم أتمتع قط بحريتي واختياري على النحو الذي يرضي عقلي)). (ص 13).

كثيرًا ما تتخلل نظرته التحليلية لفلسفة الحياة مرارة الشكوى من إملاء الحياة شروطها الجبرية التي تتعارض مع حرية الاختيار: ((في كثير من المواقف لا يكون للإنسان بد من الاستمرار في عمل فاشل بلا توقف، حتى عندما يكون هذا الاستمرار تحقيقًا للإفلاس. وهذا ليس غريبًا على الإنسان؛ فإننا جميعًا نتقبل الحياة تحت شروطٍ وظروفٍ غاية في القسوة. نتقبلها كما هي سائرين من سيئ إلى أسوأ حتى الموت. ذلك في ظاهره اختيار، وهو في حقيقته اضطرار لتقبُّل مواقف محتومة ليس من تقبُّلها مناص. هناك من يتوقف أو يتصلّب، ولكنه سيدفع ثمنًا أفظع من هناءته، سواء نجح بتصلُّبه أو فشل)). (الرفات ص 39 ــ 40). ويصور في مواضع أخرى من الكتاب ومن كتبه الأخرى ما سماه ((نزاع الإنسان بين متناقضات ذاته فكرًا وشعورًا ورضوخًا للضرورات وثورةً عليها، ونزاعًا على مطالب حياته وعواطفه وميوله وطموحاته)). (إلى ابنتي شيرين ص 61). حتى استحال الأمر إلى أن أصبح ((من الصعب جدًّا تحديد الفرق بين ما ينبغي أن يكون وما يمكن أن يكون وما هو كائن بالفعل. قد يتضح الفرق لكل منا بين ثلاثتها على نحو مختلف. أما أن نتفق عليه فهذا هو الصعب؛ ربما لأنها اصطلاحات ومعايير اعتبارية)). (الرفات ص 58). ويصرخ ضجرًا من إكراهات الحياة : ((صحيح أن من الخطأ أن يعمل الإنسان عملا يكرهه بدلَ عملٍ يحبه. ولكنَّ هذا لا يكون ممكنًا إلا إذا وُضع الإنسانُ أمام الاختيار. وأين هذا الاختيار في الحياة؟ وأين ضمانات النجاح فيما نختار؟)). (إلى ابنتي شيرين ص193). ثم يصور تناقضات الإكراه في الحياة والانتقال من إجبار إلى إجبار آخر نقيض له في عبارة ساخرة: ((عندما كنت صغيرًا كان أهلي يُكرهونني على الصيام لأعتاده، والآن يكرهني الأطباء على إلغاء تلك العادة)). (الرفات ص 94).

إكراهات الحياة وضروراتها عند شحاته تنافي مفهوم الحياة نفسه؛ إذ إن الحرية أهم مقومات الحياة، أو كما يقول هو: "دليل الحياة" (الرفات ص 70). و((إذا كان لكل رأيه في الحرية فلكلٍّ طريقه إليها)). (الرفات ص 78). و((كم هو مجرمٌ من يحول بيني وبين حريتي بحجة حرصه على حمايتي من أخطارها وتبعاتها)). (الرفات ص 63). أما إرادة الإنسان فإنها في نظره أغلى ما فيه. (إلى ابنتي شيرين ص 42).

(3)

حمل حمزة شحاتة تصوُّرَه للحرية وإيمانَه بها معه حين أراد أن يتأمل طبيعة الفضائل. أو ربما كان الإيمان بالحرية هو الذي حمل حمزة شحاتة على ألا يفصل بينها وبين الفضائل وعلى أن تلازمها

كظلها. ولذا كان مفهوم الحرية هو الأساس الذي فَصَلَ الرجلُ بناءً عليه بين ما هو من الفضيلة وما ليس منها كما أشرنا سابقًا وكما سيتضح لاحقًا.

نحت محاضرة (الرجولة عماد الخلق الفاضل) نحو الحفر المعرفي المفهومي في طبيعة ما يعتقد الناس بحسب ظاهره أنه فضيلة وأن نقيضه رذيلة. وراحت تقلب التصورات وتزحزح ما كان مسلَّمًا به أنه يقع في محيط الفضائل إلى منطقة أخرى.

عرض حمزة شحاتة الفضائل (ومثلها الرذائل) واحدةً بعد أخرى على مقياس الاختيار والضرورة، فما كان منها لا يثبت في حال الاختيار والطواعية والإيمان النابع من الذات لا بتأثير أجنبي خَرَجَ من الدائرة. ابتدأ الحديثَ عن مسعى الإنسان الأول، وكيف أنه في ذلك الطور ومن أجل تحقيق مطالب حياته ((المملوءة بالمخاطر عرف الصبر والثبات والشجاعة وطائفة من هذه المحاسن المتصلة بضرورات عيشه. نحن ندعوها محاسن أو فضائل، وهو يراها ضرورات تتصل بحياته يأتيها طائعًا أو مكرهًا؛ لأنه يريد أن يعيش. وفي هذا الطور عرف الخوف واعتاد الفرار وأحس بالجبن وانعقال القوى. نحن ندعو هذه معايب أو رذائل، وهو يراها سبيل حياته وبقائه)). (ص 39 ــ 40). ويسير في فلسفة ظاهرتَي القوة والضعف في حياة الإنسان الأول وما يتصل بهما من خصال، ليصل إلى أن التجمع لمواجهة القوى اقتضى شيئًا اسمه "التعاطف" الذي نعده نحن فضيلة ومنشؤه في واقع الأمر الضعف والاحتماء، ولذلك هو من ضرورات الحياة. وكذا ما يسمى بفضيلة حب الوطن. (ينظر ص 40 ــ 41). وهكذا يصل إلى مقولة: "إن الفضائل أنانية مهذبة، والرذائل أنانية عارية. وإن الفضائل أدل على القوة وانطلاقها، والرذائل أدل على فتورها وضيقها". (ص 64).

تنقلب عنده في هذا السياق المفاهيمُ رأسًا على عقب. فتنقلب صفتا الشجاعة والجبن من حيث المفهوم في العمق إلى عكس المعنى الظاهر تمامًا. إذ ((الشجاعة ليست خلقًا طبيعيًّا في الإنسان. فما يتصف بها الناس إلا اضطرارًا، أو فرارًا من عار، أو طمعًا في تحقيق غاية، أو منافسة لند، أو دفعًا لمسبة، أو خطأ في تقدير نتائج المخاطر. فبماذا من هذه الأسباب تستحق أن تدعى فضيلة؟ والجبن في منطق العقل السديد وليد الخوف. والخوف ليس منافاةً للعقل ولا للطبيعة الإنسانية. فهو أقوى غرائزِ الإنسان، وأداةُ شعوره بالأخطار وسبيل تجنبها)). (ص 71). وكذا الكرم والبخل، فـ ((الكرم يعطي ليأخذ، والبخل اكتفاء. وما عاب الناسُ البخلَ

إلا لما فيه من أثر الأنانيةِ الواضحة والاعتكاف في حدود الذات. ونحن نراه أنانيةً محدودة قانعة، ونرى الكرم أنانيةً واسعة جشعة)). (ص 71). وبالمثل لا يُعَدُّ الحقدُ رذيلةً لأن النفس لا ينقصها أن تحقد على من أساء إليها. وبالمقابل لا يعد العفو القادر فضيلة؛ لأنه أبلغ الانتقام وأدهاه. (ص 73). والقناعةُ فضيلة الصابر المحروم. هي في الفقير تسليمٌ بالعجز وفي الغني دلالةُ الاستكفاء. (ص 74). والتواضعُ توكيدٌ للذات، في حين أن الكبرياءَ أنانيةٌ واضحة لا تعرف الدهاءَ والحذق. (ص 74 ــ 75). والاعترافُ بالنقائص هدفُه الاتصافُ بالكمال. (ص 75). والعفَّةُ من مطالب الحياة الاكتفائيةِ الحريصةِ على أن تبقى لها ذخيرتها من النشاط والقوة. فضلا عن أنها قد تكون عجزًا وفتور حيوية. (ص 75). والكذبُ ضرورةٌ اجتماعية واقتصادية. (ص 76). والأمانةُ دليلُ سيطرةِ القُوى، وضرورةٌ لصيانة السمعة واستجلاب الثقة. (ص 77). فإذًا ليس أيٌّ من هذه الفضائل أو الرذائل ((ما هو خليق بهذه التسمية. وإنما ندعوها محاسن ومعايب فردية يهبط بها العُرف أو يعلو على وِفاق المتصف بها من القوة والضعف، أو على نصيبها من الشيوع والخمول. وأساسُها الأنانيةُ والمصلحة)). (ص 78).

وبعد أن يستبعد جميعَ هذه الصفات من أن تكون ضمن هذه الثنائية (ثنائية فضيلة ورذيلة) كما هي مستقرة في أذهان الناس يُبقي على فضيلة واحدة لا بد لكل صفة أخرى من الصفات أن تمتزج بها، وهي صفة الحياء. فالحياء ((قوام الفضائل أو قوام جماعها)). (ص 85). وإلا فليست من الفضائل في شيء. والسبب في ذلك هو أن الحياء ذاتي، أي: بين الإنسان وبين نفسه، وهو خياره الخاص غير المفروض عليه من الخارج. وهذا معناه أن الإنسان لا يكون متصفًا بشيء يستحق أن يوصف به إلا حين يكون مختارًا لهذه الصفة راضيًا بها لا يتحول عنها في كل شؤونه. فالكريم يكون كريمًا إذا كان دافعه إلى البذل الحياء، والعفيف عفيف إذا رده عن ارتكاب الجرم الحياء، وهكذا. ((الحياء الذي جهلناه وأضعنا أثره... هو قانون الفطرة الإنسانية وقانون قوتها المطلقة. الحياء الذي هو القوة والرحمة والعدالة... هو الذي يبني الحياة الفاضلة)). (ص 96).

الحياء الذي يجعل الفضيلةَ فضيلةً هو المقابل للاضطرار الذي ينفي عنها الفضلَ ويجعلها أنانيةً أو ضرورة حياة، فهو هنا مرادف للحرية والإرادة والاختيار. من هنا يمكن أن نزعم أن مبدأ الحرية هو المصفى الذي غربل به حمزة شحاته الفضائل. لكن لا بد من أن نسأل سؤالا هنا هو: ألسبب في هذا الأمر هو مجرد إيمان الرجل بالحرية والاختيار وبناء على ذلك فقط أقام موازين

الفضائل والرذائل؟ أظن أن هذا ليس الأمر الوحيد في المسألة. بل يتجاوز الأمرُ ذلك إلى رؤية خاصة عند حمزة تتعلق باللغة ودلالاتها. ذلك لأننا نرى آثار هذه الفلسفة اللغوية في مواضع أخرى غير موضع الحديث عن الفضيلة والرذيلة. وهذا ما ستعرضه السطور القادمة.

(4)

بالتأمل في طريقة حمزة شحاته التي تلح على عرض الفضائل والرذائل على مقياس الحرية كما سلف في السطور السابقة نلحظ أنه في التحليل تنبه إلى إلباسات اللغة وتعمياتها في تسميتها للفضائل والرذائل، تلك الإلباسات والتعميات التي تضلل العقل وتصرفه عن رؤية الفرق بين ما هو ضروري وما هو اختياري منها. ولعل هذه الملحوظة هي التي تسوغ لنا أن نصف تأملاته بـــ "الفلسفية"؛ إذ الفلسفة في أبسط تعريفاتها كما يقول فتجنشتاين: "معركة ضد افتتان عقلنا باللغة" أي: أنها معركة ضد البلبلة اللغوية. (فتجنشتين: بحوث فلسفية، ترجمة عزمي إسلام، مطبوعات جامعة الكويت، سنة 1990م ص 106). وبعبارة أوليفيه ربول: " الفلسفة هي أولا السؤال عما نريد أن نقوله". (ربول: فلسفة التربية، ترجمة جهاد نعمان، منشورات عويدات، سنة1986م ص 9).

ولكي يحرر حمزة شحاته المفردةَ من إلباساتها، ويحرر العقولَ من استسلامها للإلباس اللغوي، مارس هو حريته أيضًا في التأويل، وحقه في أن يدير في المعنى الظاهر الشك، أو ما يسميه أيضًا بـــ"الوسواس". هذا مع ما في ذلك من المجازفة و"الخطورة في اعتراض عُرف متصلب" كما يقول. هي مجازفة وخطورة؛ لأن عدم الحرية الذي طالما اشتكى منه يجعلها كذلك. ويضيف: ((ولكنا نرجو أن نصحح مقياسًا من مقاييسنا الفكرية ولو بالشك فيه. لأن الركود في تاريخ أمة تتطلع إلى ما وراء حدودها الجامدة شر من الخطأ. لهذا ستكون نظرتنا إلى الفضائل ـــ على أن أساسها التجريد القاسي ـــ نظرةَ من يريد أن ينطلق بها من حدودها الضيقة المتصلبة إلى حدود رحيبة من الشك والوسواس)). (ص 24).

ولذا عُني بإعادة تعريف المفاهيم بصورة تبتعد ـــ كثيرًا أو قليلا ـــ عن الدلالة الظاهرة المتداولة، محرّرًا إياها من قيد الاستعمال الذي قد يكون سببًا لسوء التفاهم وحجب المعنى. ففي إطار الفضائل والرذائل التي سبق الحديث عنها نجده في مواضع من كتبه الأخرى يعيد فلسفتها بالطريقة نفسها بحيث تنقلب المفاهيم من الإيجاب إلى السلب وبالعكس أحيانًا، وأحيانًا أخرى يترادف ما يُظن أنه متضاد ويتضاد ما يُظن أنه مترادف، منبهًا على خطورة المغالطة والبلبلة

اللغوية. يقول في إحدى شذرات رفات عقل: ((التلاعب بالألفاظ قديم. وإلا فما هو الفرق بين الجشع والطموح، والتهور والشجاعة؟)). (الرفات ص 86). و((كم كان الإنسان منافقًا عندما وضع للحب الشهواني أسماءً أخرى)). (ص 42). و((البطولة هي الجريمة إذا كُتب لها النجاح)). (ص 55). كما يعيد تعريف مفاهيم أخرى مألوفة قد يظن الناس أنها لألفتها لا تحتاج إلى تعريف، أو يعيد توصيف ما قد يُعتقد أنه ظاهر لا يحتاج إلى وصف. فـــ ((الحب والسعادة والحقيقة أقدم وأكبر وأخطر أوهام الإنسان)). (ص 54). و((الحب والمال والزواج أقدم أسباب التعاسة في العالم)). (ص 58). و((الحب مؤامرة لا يستطاع كتمانها)). (ص 63). و((الغباء والتغابي حكمة وقدرة خارقة على ضبط النفس)). (ص 58). وهكذا يسير في إعادة تعريف المعرفة والجهل، والحقيقة والواقع، والواقع والمنطق.. إلخ.

ينطلق شحاته في إعادة تعريف المفاهيم بعد هدم الظاهر المتداول منها من فلسفة لغوية خاصة تستند إلى عدم الوثوق باللغة وما تحيل عليه. إذ إنها في أكثر أحوالها تحول دون الفهم، وقد تتحول إلى أداة لسوء التفاهم أكثر من كونها وسيلة تفاهم. أو كما يقول هو بعبارته مؤكدًا هذه الصفة الملازمة للغة: ((طالما سألت نفسي بحزن عميق: أفي وسع هذه اللغة التي نتخذها وسيلة لنقل أفكارنا أن تهيئ لنا جوًّا طبيعيًّا للتفاهم وتبادل الثقة والشعور؟)). (رفات عقل ص 47).

فإذًا حين أراد حمزة شحاته أنْ يبين أنَّ مفهومَ "الحرية" هو أساسُ الأخلاق وميزان الفضائل الإنسانية الذي توزن به رأى أن ما يحجب هذا التصوُّرَ ـــ مع بساطته ـــ هو اللغة التي تسمي الأشياءَ فتُعمي عن حقيقتها، وأن اللغة تحتاج إلى "تحريرها" من افتتان العقول بها مثلما تحتاج العقول أيضًا إلى "تحريرها" من عمى اللغة، فراح يمارس حريته هو في التأويل؛ ليتبين بعد ذلك مفهومُ الحرية بعيدًا عما تقوله اللغة وتكرّسه. وتتبينَ عندئذٍ منـــزلةُ الحريةِ الحقيقيةُ في الحياة. أفلا يستحق بعد هذا أن يوصف بـــ "فيلسوف الحرية"؟